غزاة قارتين

يلقون حتفهم في البرازيل

لم تكن مسائل الدفاع الحربي عن القارتين الاميركيتين تشغل بال شعوبهما في سنة ١٩٣٠ عندما اجتاز البحر من غرب أفريقية الى ناتال في شمال البرازيل الشرقي ، فريق من الغزاة لم يلبث حتى هدّد تلك البلاد الواسعة الغنية بما هو أشدُّ فتكاً من القنابل والرشاشات

ذلك بأن مئات من السكان ، في ناتال أصيبوا بمرض عضال فتحبت الوجوه وهزلت الاجسام وفشت الآلام الناشئة عن «البرداء» — الملاريا . ولكنها لم تكن من طراز البرداء المتفشية في المناطق الاستوائية والمجاورة لها . فقد كانت آلام المصابين بهذا الضرب الجديد من البرداء أطول أمداً وممدّل الوفاة بها أعلى ، وكان يعقبها في بعض الاحيان مرض يعرف بحمى « البول الاسود » وهي ويل دائم ما زال يعيي فطن الباحثين في الامراض الاستوائية . وقامت في أذهان بعض الأطباء المخضرمين الحكماء الذين شاهدوا تفشي الملاريا في بقاع أخرى من الارض ، صورة قاتمة لم يجرؤوا على ذكرها ، ولكن باحثاً يدعى « شاغن » ما لبث حتى أثبت ان مخاوفهم في محلها

كان شاغن أحد علماء معهد ركفلر للبحث الطبي وكان متوفراً على دراسة الحشرات ، فألحق باللجنة التي عهد اليها في بحث موضوع الحمى الصفراء في البرازيل . وكان في سبيل البحث في أنواع البعوض التي تتولد في البراميل والحفر المملوءة بالماء على أثر المطر ، فشاهد بعوضاً من صنف غريب ، فلما شرّحهُ وأخذ يفحصهُ بالمجهر ، هالهُ ما رأى إذ تحقق انهُ بعوض من جنس جامبي Gambiae وانهُ غزا نصف الكرة الغربي . وكان شاغن يعلم ان ليس بين أجناس البعوض الناقلة لطفيلي الملاريا جنسٌ يفوقهُ فتكاً ذريعاً

ولكن كيف انتقل هذا البعوض الى البرازيل ؟ إنهُ لا يستطيع ان يطير مسافة تزيد على ثلاثة أميال ، ولا ان يبقى محصوراً في حجرة ما مدة تزيد على يومين ، فلا يحتمل ان يكون قد قطع المسافة من غرب أفريقية الى شرق البرازيل ، طائراً او في سفينة . ولكن طائرات الخطوط الجوية الفرنسية كانت قد تمكنت قبل ذلك من اجتياز المسافة بين دكار

وناتال في احدى وعشرين ساعة . واذن فلا ريب في ان هـذا البعوض جاء العالم الجديد محمولاً بالطائرات

فأنذرت حكومات الجمهوريات الاميركية بما حدث، وأخذت السلطات الصحية البرازيلية تشتدُّ في مراقبة جميع الطائرات الواصلة من أفريقية ، فتفتشها وتطهرها حال وصولها . ولكن خبراء الملاريا قالوا : ان الأذى وقع وبعوض الجامبيا هنا !

هذا البعوض يتوالد توالداً سريعاً ويتكاثر تكاثراً عجيباً . فالأنثى — وهي وحدها التي تحمل الطفيلي — خصبة ولود ، وبيضها ينقف في أكثر من يوم قليلاً ، ولا تنقضي ثمانية أيام او تسعة على الأناث التي نقفت أمس حتى تكون قد أخذت في البيض كذلك . وهو يختلف عن سائر أجناس البعوض التي تنقل طفيلي الملاريا في هذا : ان الاجناس الاخرى تعتذي على الغالب بامتصاص دم الحيوان ، وفي الحين بعد الحين تمتصُّ دم الانسان ، فتنقل الى السليم طفيليَّ البرداء ، او تأخذ — اذا كانت هي سليمة — هذا الطفيليّ من المصاب . أما جنس الجامبيا فيكاد يقتصر في غذائه على ما يمتصهُ من دم الانسان ، ففعلهُ في نشر المرض لا يكاد يجارى . وجسم الأنثى تتولد فيه طفيليات الملاريا بالملايين ، فجميع طبائع هذا البعوض تجعلهُ أضرى أجناس البعوض الناقل للملاريا وأشدّها فتكاً

بين ابريل ويونيو من سنة ١٩٣٠ أصيبت مدينة ناتال بأقوى وباء ملاريا عرف في تاريخ القارتين الاميركيتين . ثم جاء فصل الجفاف بين يونيو وفبراير من السنة التالية ، فخف انتشار المرض ثم انفجر ثانية وكأنهُ بركان.

وأخذ البعوض في الانتشار ، فنقلتهُ الرياح رويداً رويداً مسافة مائة وخمسة عشر ميلاً من الشاطىء ، وأصيب بالملاريا في بعض المناطق تسعون في المائة من السكان ، وتوفي من المصابين بين عشرة في المائة وخمسين في المائة منهم ، ونزف المرض قوى الناجين لم يموتوا فتركهم لا هم أحياء ولا هم أموات ، ضعافاً عاجزين عن العمل ، زائغي البصر والذهن لا تروقهم الحياة

وتذكر رجال الصحة في البرازيل ما رواه المؤرخون عن تأثير الملاريا في سقوط حضارة اليونان والرومان ، فاستولى عليهم القلق وهم يطالعون الأنباء عن انتشار هذا البعوض وتفشي الوباء في أثره ، وعاد الدكتور بارير الخبير الاميركي بالملاريا من البرازيل فأذاع الانذار التالي

« ان بعوض الجامبيا يهدد القارتين الاميركيتين بكارثة ليست الأوبئة
« والنيران والحروب في جنبها الا نكبات عابرة . فالجامبيا يدخل في
« شرايين الأمة وقد يبقى فيها قروناً يبلوها »

ثم مدَّت العناية يدها الى البرازيل ، فجاءت سنتان من الجفاف ، فجفت الارض وغاض الماء في

المواقع التي يلقي فيها البعوض بيضه فعمد الغزاة عن التوسع وأتيح لمكافحي الملاريا فرصة للعمل

كان في البرازيل جيش من رجال الصحة مهمته مكافحة الأمراض التي ينقلها البعوض ولا سيما الحمّى الصفراء . وكان على رأس هذا الجيش الدكتور باروس باراتو خليفة اوسوالدو كروز الذي أباد الحمى الصفراء من منطقة ريو ده جانيرو قبل ثلاثين سنة . وقد مضى باراتو مترسماً خطى كروز حتى غدا البعوض aedes aegypti من الاجناس النادرة في البرازيل

وكان الخبراء فريقين ، أحدهما فاشد باراتو ان ينشىء هيئة لمكافحة الجامبيا وان يتيح لها المال والأدوات اللازمة وهي كفيلة بالتغلب على هذه الآفة . والآخر كان يشك في النجاح . نعم ان الحمى الصفراء استؤصلت بالسيطرة على البعوض الذي ينقلها ولكن سرعة تكاثر بعوض الجامبيا تجعل السيطرة عليه مهما تكن وسائلها غير كافية ، ولا بدّ في مكافحته من إبادة الجنس عن بكرة ابيه . ولم يكن بين مكافحي البعوض من يتصوّر ان في الوسع ابادة جنس من البعوض. فكيف بإبادة بعوض الجامبيا ! ان اجناس البعوض الأخرى تبذر بيضها في أماكن معروفة في ركة أو برميل ممتلىء ماءً أو ما اشبه . فالسيطرة على البعوض تقتضي تجفيف هذه المواقع أو رشها عواداً تقتل اليرق قبل ان يتحول حشرة كاملة

وقد يجدون عوناً في نوع من السمك الصغير يقتات ببيض البعوض ويرقه فاذا وضعت طائفة منه في ركة ما ، تعلم انها مبيض البعوض ، أكل السمك البيض واليرق

ولكن بعوض الجامبيا يجتنب البرك والخنادق الكبيرة ويفضل أن يبذر بيضه في اماكن صغيرة وحفر لا يلتفت اليها ولا تحصى ، كحفرة أحدثها في الوحل حافر جواد أو ثور . فالمشقة في مكافحته بنفس الاساليب المعتمدة في مكافحة غيره تقتضي على قول أحد الخبراء « تجفيف كل بقعة كبيرة او صغيرة يتجمع فيها الماء بعد كل مطر »

وكذلك علمت البرازيل رجاءها بانحباس المطر وجفاف الأرض ، لعلّ هذا الغازي الافريقي يجد الجفاف في ارض البرازيل فوق ما يطيق . ولكن عند ما همى الغيث في سنة ١٩٣٤ عاد البعوض الى الانتشار ، واتسع نطاق انتشاره خلال السنوات الاربع التالية حتى شمل شمال البرازيل وغربها وكانت المساحة المصابة بالملاريا في سنة ١٩٣٨ تبلغ اثني عشر الفاً من الاميال . وأصيب سكان مدن بأسرها بها ووقف العمل ولم تزرع الحقول لقلة اليد العاملة. وقال ممثلو معهد روكفلر في تقريرهم : « سيكون من عواقب انتشار هذا البعوض انّ كل واحد من السكان في المنطقة المصابة سيصبح عالة على الحكومة في سنة ١٩٣٩ »

عند ذلك بات الخطر المحدق بنصف الكرة الغربي خطراً كبيراً محققاً . فقال احد الخبراء « اذا اجتاز بعوض الجامبيا وادي البارناهيبا والساو فرنسيسكو استحال منع انتشاره الى سائر اميركا الجنوبية والى اميركا المتوسطة وقد يتعذر منع تطرقه الى اميركا الشمالية »

وفي يناير من سنة ١٩٣٩ أعلنت البرازيل الحرب على الجامبيا . فأصدر الرئيس مرسوماً بانشاء قيادة مكافحة الملاريا في المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد . وندب الدكتور باراتو — المدير العام للصحة العامة — الدكتور مانويل فريرا لتولي هذه القيادة وهو من أقطاب الصحة العامة في البلاد. وألحق به هيئة اركان حرب أعضاؤها الدكتور شاغاس أحد كبار العلماء في مسائل الملاريا — وقد قتل من عهد قريب في حادثة طائرة . وأرصدت الحكومة ربع مليون من الريالات لهذا الغرض واكتتب معهد روكفلر مائة الف ريال . لقد حسمت الناقشة في حل ابادة هذا البعوض مستطاعة او غير مستطاعة وجاء دور العمل الحازم، واذا الشعار: « استبينوا طريق المكافحة مهما يكن وسيروا عليه »

كان الوقت المتاح لتدريب الجنود قصيراً . ولم يكن أمام القواد مثل يحتذون عليه وأساليب يأخذون بها . ولكن عند ما حلَّ فصل المطر في فبراير سنة ١٩٣٩ كان الجيش الأول في الميدان وكان قوامه اثنين من الأطباء والمتفشين والعمال. وانقضت اربعة اشهر ظهر فيها ان بعوض الجامبيا خصم عنيد . فالمطر المنهمر كان يترك بقعاً من الماء في كل مكان . والى هذه البقع كانت تختلف أنات البعوض تلقي فيها بيضها . فعمد جيش الكفاح الى المناطق الموبوءة وبسط عليها سيطرته وأرسل فصائل الاستكشاف الى ما وراء هذه المناطق فأنشأ فيها مواقع للمراقبة . فما أقبل شهر يونيو حتى أعلنت قيادة الجيش ان العدوبات مطرداً . ثم بدأت معركة الإبادة

عولج كل مكان يصح ان يكون مباءة لبيض البعوض بأخضر باريس . وانتشر العمال بمضخات التطهير يقرعون كل باب ويدخلون كل دار يقتلون البعوض البالغ في الدور والخيام والدكاكين والبيوت المهجورة . ومضوا في تنفيذ هذه الخطة بغير هوادة أو لين في كل بوصة مربعة من الأرض في المنطقة الموبوءة وعلى مسافة عشرة أميال وراء حدودها . وكانت الفصائل المتنقلة تقفو كل عربة وتطهرها قبل انتقالها من المنطقة الموبوءة الى ما يليها

ولقد أصيب هذا الجيش بغير يسير من خيبة الأمل ولكنه لم يقنط . فقد نفد المال ولكن الحكومة البرازيلية أرصدت مائتي الف ريال أخرى ومضت الحملة على أساس التجربة والخطإ . وجاءت أحايين بدا فيها للقواد ان الحشرات القاتلة تهزأ بهم وتسخر من جهدهم . ولم يكن من النادر ان يقوم فرض في منطقة كانت تُظَنُّ غير موبوءة وهي تبعد أميالاً عن أقرب منطقة موبوءة اليها . فأرسلت فصائل مستكشفة للبحث وما لبثت حتى عرفت الجواب وكشفت السر. ففي حالة واحدة، اجتنبت سيارة عيون الرقباء وشقت طريقها من المنطقة الموبوءة خارجة عن الطريق المطروق فلم يشملها التطهير والتدخين . وفي حالة أخرى تسلل زورق نهري صغير تحت ستار الظلام . وفي الحالين انتقل البعوض من منطقة الى أخرى كانت سليمة منه

ولكن ذلك لم يثن عزم الجيش . وفي سنة ١٩٤٠ رصد مليون ومائة وثلاثون الف ريال لهذه الحرب . وكان نصيب معهد وكفلر منه مائتين وثلاثين الف ريال . وزيد الجيش المكافح الى أربعة آلاف . وأعلنت قيادة الجيش في طمأنة تم على الثقة « ستكون هذه السنة سنة القضاء على الغزاة »

والواقع ان بعوض الجامبيا بدأ يرتدُّ بعد ما صدَّ . وكان المطر غزيراً ولكن التقارير الواردة من انضباط في منطقة أثر منطقة كانت تقول جميعاً : المنطقة نظيفة وليس ثمة دليل على وجود البعوض أو البيض او اليرق » . ولولا هذا الكفاح العظيم لكانت البلاد في هذا الفصل المطير مرتعاً خصباً للبعوض يتكاثر فيه وينتشر

والدليل على ذلك أن الجيش كان قد احتفظ بمنطقتين لم يعالج البعوض فيهما بأساليب الكفاح المختلفة ليستطيع المقارنة . فكانت فرعة البعوض عظيمة فيهما ، ولكن هزيمة العدوّ كانت بادية في كل منطقة أخرى نفذت اليها فصائل الكفاح

عند ذلك قرّرت قيادة الجيش أن تمتحن ما فعلت امتحاناً فعّالاً . فكانت كلما أعلنت كتائب الكفاح أن منطقة ما قد طهرت من البعوض ، ترخى وسائل المراقبة والكفاح ولكن فصائل الاستكشاف تبقى مترصدة تطوُّر الحال لئلا يفلت الزمام من يدها . ومضت أشهر ولكن بعوض الجامبيا لم يظهر

غير ان الحذر والخوف يساوران المكافحين لأنهم يعلمون أن بعوض الجامبيا عدو عنيد غادر . والواقع إنه حدث ما روّعهم في حالة واحدة ذلك بأن بعوض الجامبيا ظهر في منطقة تبعد خمسين ميلاً عن حدود أقرب منطقة كانت موبوءة . ولم يعرف السبب ولكن الجيش المكافح قضى على العدو بعد حملة قصيرة

وقد انقضت سنة أو تزيد الآن ، ودوريات مصلحة الصحة تطوّف في شمال البرازيل الشرقي مستكشفة مستطلعة بغير أن تشاهد بعوض الجامبيا . وأعلنت أنها تجيز كل من يأتيها ببيضة أو بعوضة أو يرقة بمبلغ من المال . ولكن أحداً لم ينل هذه الجائزة

وعلماء البرازيل حذرون الحذر كلهُ — شأن العلماء الصادقين — فلا يزعمون أن بعوض الجامبيا قد أبيد . ومع ذلك فان النتيجة التي أحرزوها وقعت وقعاً عظيماً في دوائر علماء الصحة في كل مقمع لأن هذا الغازي المجتاح التالف يشاهد في البرازيل منذ شهر نوفمبر سنة ١٩٤٠

ان البرازيل قد أثبتت بما بذله رجالها من همة وصدق كفاح ، ان الملاريا مرض في الوسع استئصاله . فلا يجوز بعد الآن ان تبلى به أمة ما . وانتشاره في جماعة ما من الناس يجب ان يعدّ باعثاً من بواعث العار الاجتماعي ونتيجة من نتائج الاهمال

(عن مجلة ريدرز ديجست عن مجلة العمر الحي بتصرف يسير)